

الثقافة والأدب في عهدي الموحدين وبني الأحمر

لم تلبث دولة المرابطين أن انهارت باستقواء حركة الموحدين التي أسسها المهدي بن تومرت (ت ٥٢٤هـ) المنتسب إلى قبيلة هرغة من المصمودة جنوب المغرب، وقد استمرت دولة الموحدين زهاء قرن من الزمان، وعلى الرغم من وجود الثورات الداخلية واشتداد هجمة الأسيبان على الأندلس فإن الحياة الثقافية إجمالاً والأدبية بشكل خاص كانت استمراراً لحالة النماء والتقدم التي عاشتها الأندلس في عصر الطوائف والمرابطين.

إن الحياة الأدبية التي ازدهرت في عهد الموحدين كانت نتيجة طبيعية ومنسجمة للاهتمام البالغ الذي أولاه الحكام أنفسهم فقد اهتم ابن تومرت بالعلم وكانت مجالسه عامرة بالعلماء وقد ترك مؤلفات كثيرة أصبحت الكتب التي تدرس بعد وفاته وسار على هذا النهج الخلفاء الذين جاءوا بعده، ولا سيما في عهد المنصور الموحدي حيث اتسمت الحياة الأدبية بسمات متميزة منها انتشار اللغة العربية فأصبحت اللغة الرسمية للبلاد وشاعت بجوارها لغة قبائل البربر، على أن بعضها كان يتحدث العربية كذلك.

ازدهرت العلوم الإسلامية في عصر الموحدين، في علم القراءات، والتفسير والحديث والفقه وعلم الكلام، إلى جانب الطب والرياضيات، ومن أعلامهم: عبد الحق بن عطية (ت ٥٤١هـ) صاحب تفسير المحرر الوجيز، وأبو الحسن علي الغرناطي المفسر، وأبو بكر المعافري السبتي المعروف بابن الجوزي وعبد الجليل الأنصاري (ت ٦٠٨هـ) وابن عات (ت ٦٠٩هـ)، وابن القطان (ت ٦٢٧هـ) وأبو الربيع سليمان الكلاعي (ت ٦٣٣هـ) وغيرهم.

وفي ميدان التاريخ وكتب التراجم عرفت الأندلس ثلاثة من أصحاب البرامج: ابن خير الإشبيلي (ت ٥٧٥هـ) وأبو الحسن الرعيني (ت ٦٦٦هـ)، وابن أبي الربيع الإشبيلي (ت ٦٨٨هـ)، وأما أبرز مؤرخي هذا العصر، فأبو العباس العزفي (ت ٦٣٣هـ) صاحب الدر المنظم في مولد النبي المعظم، وأبو الخطاب بن دحية (ت ٦٣٣هـ)، وعبد الواحد المراكشي (ت ٦٤٧هـ)، وابن الأبار القضاعي (ت ٦٥٨هـ)، ومن مخضرمي الدولتين ابن فرتون السلمي (ت ٦٦٠هـ) صاحب (الذيل على ضلة ابن بشكوال)، وابن سعيد (ت ٦٨٥هـ)، وابن عبد الملك المراكشي (ت ٧٠٣هـ)، وابن الزبير (ت ٧٠٨هـ)، وابن عذاري (ت ٧١٢هـ)، وفي الجغرافية اشتهر أبو عبد الله الإدريسي (ت ٥٦٠هـ) صاحب كتاب نزهة المشتاق.

وقد ازدهرت العلوم الفلسفية ازدهاراً لم تشهد الأندلس له مثيلاً فعرفنا أعظم شخصيات التفكير الإسلامي على الإطلاق مثل ابن طفيل وابن زهر وابن رشد ففي عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن ازدهرت الفلسفة على نحو ما ينقل المراكشي عنه فيقول: "ثم طمح به شرف نفسه وعلو همته إلى تعلم الفلسفة فجمع كثيراً من أجزاءها..." وكان من المقربين إليه أبو بكر بن طفيل وابن رشد، وكانت تدور المناظرات الفلسفية ويشارك فيها الخليفة بما يحوز على إعجابهم.

وظل شأن الفلسفة مرموقاً في عهد المنصور الموحدي حتى نكب ابن رشد لأسباب اختلفت الروايات فيها ولم ينحسر ظل الفلسفة كثيراً، إذ سرعان ما صفح عنه، وعادت الصحبة إلى سابق عهدها.

وفي مجال اللغة والنحو ظهرت المؤلفات واشتهر من علماء الموحدين أبو عبد الله بن هشام اللخمي (ت ٥٥٧هـ)، وأبو القاسم السهيلي (ت ٥٨١هـ) المعروف بدراساته اللغوية وتحقيقاته النحوية، كذلك عرف أبو موسى الجزولي (ت ٦١٠هـ)، وابن معط (٦٢٨هـ)، وقد تحقق الازدهار الثقافي في جميع ميادينه، فضلاً عما ذكرناه.

ومن العوامل التي ساعدت على هذا الازدهار. وهو ما أشرنا إليه آنفاً. إقبال ملوك الموحدين على الثقافة وعنايتهم الخاصة بها، فمما يروى عن عبد المؤمن بن علي، أنه كان مؤثراً لأهل العلم محباً لهم محسناً إليهم يستدعهم من البلاد .. حتى أنه أنشأ مدرسة لتخريج رجال السياسة وموظفي الحكومة تضم ثلاثة آلاف طالب، من أبناء الأكابر، يسمون طلبة العلم والحفاظ، وكان لعبد المؤمن من هؤلاء ثلاثة عشر ولداً تثقفوا على هذا النحو وأبدوا براعة في الفنون الحربية. وكان عبد المؤمن نفسه عالماً بالجدل والأصول حافظاً لحديث النبي ﷺ مشاركاً في علوم كثيرة دينية ودنيوية إماماً في النحو واللغة والأدب والتاريخ وعلم القراءات^١ وقد حرص على تأديب أولاده فاستدعى لهم العلماء والأدباء أمثال أحمد بن حسن الجراوي المالقي، وأحمد بن عبد الجليل التدميري.

وكذلك كان ابنه يوسف متنوع الثقافة في العلوم الدينية وعلوم العربية وغيرها وقد بلغ المنصور الموحيدي مبلغاً كبيراً في مشاركته في العلوم الإسلامية حتى شهد له بذلك المقرري في نفع الطيب،^٢ ومن الدراسات الحديثة التي تناولت النهضة الثقافية في عصر الموحدين كتاب محمد المنوني العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين،^٣ ودراسة محمد الرشيد ملين التي اختصت بعصر المنصور الموحيدي، فقد حرص على استدعاء العلماء المشهورين لتأديب أولاده ومن ذلك أنه كلف عاملاً له أن يرسل مؤدباً لأبنائه فأرسل العامل رجلين فلما امتحنهما لم يرض بهما ووقع على ظهر كتاب العامل فظهر الفساد في البر والبحر.^٤

والخلاصة في عصر الموحدين ما قاله محمد بن شريفة: "إن العلوم وصلت في هذا العصر إلى ذروتها العليا وبلغت مداها البعيد الذي جمع زبدة الحقب الماضية، وعاشت على زاده العصور التالية".^٥

ولم تكن الثقافة في عصر بني الأحمر متخلفة عن المستوى الذي شهدناه لها. قبل قليل في عصر الموحدين. فقد عني حكام بني الأحمر بالثقافة واجتمع لديهم من الأدباء والعلماء عدد كثير وقد اختلفت الحياة الثقافية في عهد بني الأحمر لأسباب تعود إلى

١ المعجب، ٢٦٩.

٢ تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ص ٣٠١. العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، ص ٢٣.

٣ الأنيس المطرب، ١٧٠/٢.

٤ نفع الطيب، ٣٨٠.

٥ ط ٢، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر الرباط، ١٩٧٧.

٦ عصر المنصور الموحيدي، ١٧١. الحضارة الإسلامية، ٤٩٩.

٧ أبو المطرف بن عميرة، ص ٢٤.

طبيعة الحياة واشتداد هجمة الأسيان الذين أحاطوا بهذه الدولة من كل جانب وكثرة الثورات الداخلية، وكثرة الهجرات من مدن الأندلس المختلفة إلى دولة المسلمين التي ساسها بنو الأحمر فبعد أن كانت مدن الأندلس في شبه الجزيرة الإيبيرية مراكز حضارية للثقافة والعلم انحسرت سيادة المسلمين إلا عن هذه الدولة.

والملاحظ أن حكام دولة بني الأحمر كانوا وراء حركة التقدم والازدهار في الحياة الفكرية والأدبية على نحو ما نرى في عصر محمد الأول (ت ٦٧١هـ) ومحمد الثاني (ت ٧٠١هـ) ومحمد الثالث (ت ٧٠٨هـ) وكان الأخيران ينظمان الشعرويحفتيان بأهله ويعقدان المجالس الأدبية، وأبرز أمراء بني الأحمر الأمير يوسف الأول الذي ظهرت في عهده طائفة من الشعراء والأدباء من أمثال ابن الخطيب وابن زمرك وأبي الحسن النباهي، وقد أسس هذا الأمير مدرسة غرناطة ذات السمعة الواسعة،^١ وكذلك كانت عناية يوسف الثالث ومحمد الخامس، وقد خلف الأمير أبو الوليد بن الأحمر كتباً كثيرة.^٢

وأبرز العلوم التي حظيت بعناية الحكام ومؤازرتهم لأصحابها العلوم الإسلامية المختصة بالقرآن الكريم والحديث الشريف كعلوم القراءات والتفسير، والفقه، فمن علماء التفسير ابن جزي الكلبي الغرناطي (ت ٧٤١هـ) وأبو حيان الغرناطي (ت ٧٤٥هـ) وأبو عبد الله بن رشيد السبتي (ت ٧١١هـ) صاحب الرحلة وإبراهيم بن موسى الشاطبي الغرناطي صاحب الاعتصام والموافقات (ت ٧٩٠هـ) والقاضي النباهي صاحب المرقبة العليا، والحسن بن إبراهيم البلوي (ت ٧٤٠هـ)، وأحمد بن محمد الرعييني (ت ٧٤٤هـ)، ومحمد بن أحمد بن صفوان القيسي (ت ٧٤٩هـ)، وقد اشتهر بالعلوم الدينية محمد بن عاصم القيسي الغرناطي صاحب المؤلفات الكثيرة.

وقد انحسرت بعض العلوم التي ازدهرت في عصر الموحدين كعلوم الفلسفة والطبيعة لهجرة الكثير من العلماء من الأندلس واستمر سلطان الفقهاء على منتحلي هذه العلوم بازديادها والطعن على أصحابها حتى أن خصوم لسان الدين بن الخطيب نالوا منه بهذه الحججة وأحرقوا كتبه بمحضر الفقهاء والمدرسين على ما يذكر القاضي النباهي،^٣ لما تضمنته من عقائد أوجبت ذلك عندهم ثم انتهت الحادثة بمقتله فيما بعد.

١ يوسف الأول بن الأحمر، ص ٤٤.

٢ ينظر أبو الوليد بن الأحمر، ٢٥٧.

٣ المرقبة العليا، ٢٠٢.

المبحث الأول الشعر والشعراء

الشعر في عهد الموحدين وبنو الأحمر:

رأينا عهد التألق الشعري مقروناً بملوك الطوائف، وعرضنا للآراء المختلفة حول حالته في عصر المرابطين، أما عصر الموحدين فالآراء تكاد تجمع على اهتمام ملوكهم بالأدب بشكل عام والشعر بشكل خاص، إذ شعرت الدولة بأهمية الشعراء واتخذتهم أداة ووسيلة إعلامية لدعم مكانتها وقد أفاضت الدراسات الحديثة في هذا المجال، وفي مقدمتها دراسة عباس الجراري، الذي أشار إلى أبرز دواوين هذا العصر،^١ وهي تمثل القليل من الكثير الضائع، كما أشار إلى ظاهرة قرض الملوك وأمراء الدولة للشعر ودورهم في تشجيع الأدب،^٢ وساق أمثلة كثيرة على ذلك ثم تحدث عن أصناف الشعراء وطبقاتهم وانتهى إلى القول في خصائص الشعر حيث استطاع أن يحدد خمسة اتجاهات في شعر هذا العصر فقد صنفهم. من حيث أزمانهم. في ثلاث طبقات:^٣

١. شعراء العصر المرابطي الذين أدركوا الموحدين لكنهم لم يتأثروا بالدعوة ولم يعرضوا لها بأشعارهم ومنهم القاضي عياض (ت ٥٤٤هـ) وكان مقلداً في شعره.
٢. شعراء عاصروا عهدي المرابطين والموحدين، وساروا في ركاب المرابطين، ثم انحازوا إلى الموحدين وأحرزوا مكانة عندهم، ومنهم أبو عبد الله محمد بن حبوس (ت ٥٧٠هـ)،^٤ فقد كان مقدماً عند علي بن يوسف بن تاشفين ثم هرب إلى الأندلس، فأصبح شاعر الخليفة الموحي فيما بعد وعلى الرغم من مكانته الرفيعة التي أحرزها فإن ديوانه لم يزل مفقوداً.^٥
٣. شعراء نشأوا في أحضان الدولة الموحدية ووهبوا أنفسهم وشعرهم لها، ومنهم أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي الكورائي (ت ٦٠٩هـ) أديب المغرب على الإطلاق في زمانه كما يقول ابن سعيد،^٦ وقد باهى به عبد المؤمن حين قال فيه: "يا أبا العباس إنا نباهي بك أهل الأندلس.."، والمقولة تتضمن. فيما تتضمن. روح المنافسة بين أدبي العدوتين التي تجلت في مظهر أقوى دلالة هورسائل فضائل

١ الأمير الشاعر أبو الربيع الموحدي، ٩٨. ٩٩.

٢ نفسه، ٩٨. ٩١.

٣ نفسه، ١١٠.

٤ ينظر عنه بحث الأستاذ عبد القادر زمامه "ابن حبوس"، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، ١٩٨٠، العدد، ٧، ص ١٣٧. ١٥٥.

٥ نفسه، ١٥٤.

٦ الغصون اليانعة، ١٠٢.